

على بحث « التخلف الفكري وأبعاده الحضارية » للدكتور فؤاد زكريا

تعليق

ان البحث السذي وضعه الدكتور فؤاد زكريا في موضوع « التخلف الفكري وأبعاده الحضارية » جدير بكل هناية وتدبر لانه يتناول مشكلة من أهم مشكلات الواقع العربي المعاصر ، ويعالجها بتجرد ووعي واطلاع ونفاذ . ولما كان قد طلب مني ان اعلق على هذا البحث ، فاني اورد الملاحظات التالية راجيا ان تاتي تنمية لجهده ، وأن تساهم في استخلاص جوهر هذه المشكلة ورسم أبعاده ، وفي توضيح بعض جوانبها ، وفي اثارة النقاش وتركيز الحوار حولها ، تحقيقا للفرض الذي استهدفه الندوة الكريمة .

١ - يخيل اليّ ان الدكتور زكريا نظر الى موضوع « التخلف الفكري وأبعاده الحضارية » من زاوية واحدة هي نظرتنا الى تراثنا . ففي رايه ان هذه نظرة خاطئة في جوهرها لكونها « لا تاريخية » (ص ٢ ، س ٦) ، وهي التي أدت الى تخلفنا الفكري الحاضر . هذه النظرة الخاطئة ، واترها الفريد في واقعنا الفكري ، هما محور البحث ومنطلق المواقف التي يتخذها الباحث . ففي الصفحة الاولى مثلا (س ٨ من أدنى) يقول : « ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي أن يركز أساسا على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي ... » . وفي الصفحة التالية (س ٨ من أدنى) : « وسوف يكون جهدي خلال هذا البحث منصبا على اثبات ان الطريقة التي طرحت بها هذه المشكلة ، سواء من جانب انصار التراث ام خصومه ، لم تكن الطريقة الصحيحة ، وان هذه النظرة المخطئة الى التراث ، والى ثقافتنا الماضية في صلتها بالحاضر من أهم أسباب التخلف الفكري ، وعدم الاستقرار الحضاري في عالمنا العربي » . وفي ص ١٩ (س ١١) : « ان المقارنة بين موقف الاديبيين من تراثهم ، بل من تراثنا نحن ايضا وموقف الثقافة العربية من هذا التراث ، تكشف لنا عن مصدر أساسي من مصادر تخلفنا الفكري » . وفي ص ٢٢ (س ٩ من أدنى) : « فالمشكلة الحقيقية التي جعلت من نظرتنا الى التراث عاملا رئيسيا في تخلفنا الفكري ... » .

فهذه النظرة هي اذن : « عامل رئيسي » في تخلفنا الفكري ، او « مصدر أساسي » من مصادره ، او سبب « من أهم أسبابه » ، وينبغي ان تكون أساسيا لتحليل عوامله .

٢ - على ان الدكتور زكريا يقول ، من جهة ثانية (ص ٩ ، س ٥ من أدنى) : ان هذه النظرة « اللاتاريخية » الخاطئة هي « من أوضح مظاهر التخلف الفكري في بلادنا » . وهنا لا بد للمرء من ان يتساءل : هل هذه النظرة « اللاتاريخية » الخاطئة ، التي أحسن الدكتور زكريا في ابرازها وتفصيلها ، عامل او سبب او مصدر (رئيسي او هام) لتخلفنا الفكري ، ام هي مظهر من أوضح مظاهره ؟ ونحن نعم جيدا ان كثيرا من الاحداث التاريخية والاضاع الانسانية - ان لم نقل جميعها - هي بالوقت نفسه أسباب ومظاهر ونتائج . فتخلفنا التربوي مثلا هو علة من علل ضعفنا الاقتصادي ، ولكن هذا بدوره هو ايضا علة لذلك . فالاسباب والمظاهر والنتائج تكون في اغلب الاحوال متشابكة متفاعلة ، ومن الصعب جدا فصل بعضها عن بعض ، ومن العسير عند تحليلنا لاي وضع من الازعاج ان نميز بين « سببته » من ناحية و « ظاهريته » من ناحية اخرى . واني ارى ان

الدكتور زكريا قد اقتصر او كاد على الوجه « السببي » لنظرتنا الخاطئة الى التراث ، وجعلها مدار بحثه في تحليل تخلفنا الفكري ، ولم يشر الى وجهها « الظاهري » او « المظهري » الا اشارة عارضة . اما أنا فوافقه على ان هذه النظرة الخاطئة هي سبب من أسباب تخلفنا الفكري ، ولكنني لا ارى لها ذلك الدور الرئيسي الذي يميزها به ، واعتبرها مظهرا ونتيجة اكثر منها عاملا وسببا . وبكلمة اخرى : اننا لسنا ، في الدرجة الاولى ، متخلفين فكريا لاننا ننظر الى تراثنا نظرة خاطئة ، وانما نحن ننظر هذه النظرة بسبب تخلفنا الفكري .

٣ - ومن هنا كنت أرجسو ان تكون نظرة الدكتور زكريا الى الموضوع اوسع وأشمل ، أي ان تتناول مختلف عوامل تخلفنا الفكري ومظاهره ، لا ان يقتصر على العامل السذي يبرزه . وهو نفسه يعتد هذا العامل بأنه رئيسي او أساسي او هام ، ولكنه ، اذ يصب اهتمامه عليه ، يكاد يوحي بأنه العامل الرئيسي او الاساسي او الأهم ، ان لم نقل العامل الوحيد . ليس ثمة عوامل اخرى ، رئيسية او غير رئيسية ، وما هي ؟ ثم ما هي مظاهر هذا التخلف الفكري ونتائجه ؟ اني اعترف ان الموضوع واسع غير محدد ، وقد يضل المرء في شعابه المتشابكة . ولا ضير على الباحث ان يقصر بحثه على جانب من جوانبه كالاسباب دون المظاهر او المظاهر دون الاسباب ، او حتى على سبب معين او مظهر محدود ، ولكن لا بد له في هذه الحال من ان يضع موضوعه ضمن نطاقه الشامل . فملاحظتي العامة على بحث الدكتور زكريا هي اذن ملاحظة مزدوجة : فمن جهة ان تعليقه لتخلفنا الفكري هو ، بالفعل ، تحليل احدي الظواهر ، في حين اني اجد الاحداث التاريخية اوسع واشد تمكنا من ان تكون ناشئة عن عامل واحد مهما يكن شأنه ، ومن جهة ثانية ان ما يراه عاملا اوليا وما كاد يجعله عاملا وحيدا لتخلفنا الفكري (اي نظرتنا الخاطئة الى التراث) اراه بمنقظوري مظهرا ونتيجة بالدرجة الاولى وسببا بالدرجة الثانية او الثالثة .

٤ - ومن هنا فاني اعتقد انه يجب ان نخرج من الوضع الذاتي للعقل العربي المعاصر في نظرتنا الى الماضي الى السياق الموضوعي لذلك الماضي . والحقيقة الكبرى التي تواجهنا في ذلك السياق هو ما أشار اليه الدكتور زكريا عند كلامه عن « الانقطاع الحضاري » (ص ١٣) . فالحضارة العربية ، بعد ان نمت وزهت وأثمرت عدة قرون ، توقفت عن النمو والازدهار ، وهذا التوقف ، كما هي الحال في كل حضارة من الحضارات ، هو بدء الانحلال والتخلف . وقد تختلف - حسب مفاهيمنا لمباعت الحضارة ومقوماتها ولتنوير مجرى التاريخ - في تعيين بدء هذا التوقف . ولكن لا مجال للاختلاف في حقيقته وواقعه . فلا بد اذن من استكشاف اسبابه وتحليل عوامله لان هذه الاسباب والعوامل هي التي أدت في نهاية الامر الى تخلفنا الفكري الحاضر . وليسمح لي الدكتور زكريا ان اخالفه عندما يقول (ص ١٣ ، بدء الفقرة الثالثة) : « هذا الانقطاع الثقافي اذن امر واقع ، وليس هنا مجال تحليله ، ولكن يكفي ان نقرر حدوثه فحسب » . ذلك اني اعتبر ان النظر في هذا الانقطاع ومحاولة تحليل عوامله يجب ان يكون مرتبطا بهذا البحث ومنطلقا المعالجة ، لان الانقطاع الحضاري ، او التوقف الحضاري ، هو الذي أدى الى تخلفنا الفكري الحاضر . فما هي أسبابه وعوامله ؟ لماذا توقفت الحضارة العربية

عن النمو والإنتاج والعطاء ، فتخلفت وورثنا نحن منها هذا التخلف ؟ وهنا لا بد من إشارة عارضة ، ولكنها هامة . فقد بدأ الدكتور زكريا كلامه عن هذه الظاهرة أو السمة بتسميتها « الانقطاع الحضاري » ، ثم عاد فجعلها « الانقطاع الثقافي » (ص ١٣ ، بدء الفترتين الأولى والثالثة) . وحيدا لو التزم التسمية الأولى ، لان الحضارة اوسع من الثقافة واشمل ، بل انها تؤلف كيانا عضويا موحدا يضم السى الاوضاع الثقافية الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وسواها . والثقافة ، مهما يعظم تقديرنا لها ، تبقى عنصرا من عناصر الحضارة أو وجها من وجوها أو جزوا من مضمونها .

نعود ، بعد هذه الملاحظة العارضة ، الى تساؤلنا : لماذا انقطعت أو توقفت الحضارة العربية : اكان ذلك لعجز العرب عن التغلب على عصبيتهم القبلية والعائلية والفردية والانصراف في ولاء أو رابطة اعظم واوسع ، أم للعنيمات والمنازعات الجنسية بينهم وبين سواهم من الشعوب التي انخرطت تحت راية الاسلام ؟ أم لان بعض هذه الشعوب لم تكن لها سابقة في الحضارة ، فلم تسهم في الانجاز الحضاري الاسلامي ، بل العكس عطلته وشلته حيويته عندما تسلمت زمام الحكم والسيطرة ، أم لان العرب بعد فتوحاتهم الباهرة اخطوا يفقدون روح المبادرة والافدام وينصرفون الى التلهي والتنعيم ، أم لان الانجاز الحضاري العربي ذاته - على عظمته - كانت تعتربه نواقص جوهرية هي التي ادت آخر الامر الى توقفه وانقطاعه ، أم لان هذا الانقطاع هو سنة التاريخ وسبيل كل حضارة من الحضارات ، فكل حضارة تولد وتنمو وتزدهر ثم لا بد لها من ان تفسد وتنحل ، أم لاجتماع بعض العوامل او كلها ، أم لعوامل اخرى غيرها ؟ اقول ان تحري هذه العوامل الموضوعية لتوقف الحضارة العربية أو انقطاعها ضروري لفهم تخلفنا الفكري الحاضر ، الذي هو وليد هذا التوقف أو الانقطاع ، وضروري كذلك لمعالجة التخلف المذكور ومحاولة الخروج منه الى الحيوية الفكرية والتقدم الحضاري .

ه - وما دمنا في مجال الكلام عن هذا الانقطاع ، يجدر بنا ان نشير تساؤلا آخر . اصحيح ، كما قال الدكتور زكريا (ص ١٣ ، س ١ - ٢) ، « ان سمة الانقطاع الحضاري هي الصفة المميزة للتراث الفكري والعلمي في بلادنا العربية » . اني اعتبر هذا القول صحيحا اذا كان المعني به ظاهرة بارزة من ظواهر تراثنا ، وهي ظاهرة لا نستطيع انكارها . اما اذا كان المقصود به ان هذا الانقطاع هو الصفة المميزة للتراث العربي دون غيره من التراثات ، فاني لا أستطيع قبوله . ولعل ما يثير الشك في نفسي هو قوله في مفتتح بحثه (ص ١ ، س ٨ من ادنى) عن الموقف العقلي العربي الحاضر : « ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي أن يرتكز اساسا على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي ، وهي صلة ازمه انه لا يوجد لها نظير في الثقافات الاخرى » ، و (ص ٢ ، س ٢) : « ان السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر ، في الثقافة العربية ، هي ان الماضي مائل دائما امام الحاضر ، لا بوصفه منمجا في هذا الحاضر ومتداخلا فيه ، بل بوصفه قوة مستقلة عنه ، منافسة له ... ولو شئت ان ألخص هذه السمة في كلمة واحدة ، لقلت ان نظرنا الى الماضي « لا تاريخية » .

اني ، من جهتي ، ازمه ان لا الانقضاء الحضاري كظاهرة موضوعية للتراث العربي هو ظاهرة مقصودة على التراث العربي أو مميزة له عن التراثات الاخرى ، ولا الموقف الذاتي العربي المصادر من هذا التراث هو سمة تنفرد بها ثقافتنا العربية الحاضرة وليس لها نظير في الثقافات الاخرى . ان الانقطاع قد حدث في كل حضارة انسانية سابقة زهت ثم انحطت وتفسخت ، ولست ارى ان حضارتنا العربية هي فريدة في هذا المجال . وكفييني هنا ان احيل القارئ الى الكتاب الجليل للمؤرخ الشهير ارنولد توينبي « دراسة في التاريخ » ، والذي يحلل سياق نيف وعشرين من الحضارات الكبرى التي قامت في التاريخ ويظهر انها كلها - ما عدا الحضارة الفريسية

العديثة - قد توقفت وركنت بعد نموها وازدهارها وتضعفت وانحلت بسبب هذا التوقف والركود . حتى الحضارة الغربية الحديثة فان ثمة مظاهر خطيرة عديدة توحى بانها هي ايضا قد دخلت مرحلة التضعف والانحلال . فهل يصح اذن ان نقول ان « الانقطاع الحضاري » هو صفة مميزة للحضارة العربية اذا كان المقصود انه يميزها عن سواها من الحضارات ؟ ألم يكن هذا شأن الحضارة الهندية والحضارة الصينية ، بل شأن الحضارة الغربية ذاتها التي توقفت وانقطع سياقها - قليلا أو كثيرا على اختلاف بين المؤرخين والمحللين - طيلة عدة قرون في العصر الوسيط ؟

وكذلك فيما يتعلق بالموقف الانقطاعي الذاتي في العقل العربي بين الماضي والحاضر ، اصحيح ان هذا الموقف هو ظاهرة « لا يوجد لها نظير في الثقافات الاخرى » و « السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر في البلاد العربية » ؟ اني اميل الى الاعتقاد ان هذه الظاهرة تسم ادوار التخلف والانحطاط في اية حضارة كان لها ماض زاه وانجاز سابق رافع . فان من سمات تخلفها انها تلتفت الى الماضي ولا تتطلع الى المستقبل ، فتتخدر بشعور الاعتزاز بالتراث ولا تحس بضرورة « تجاوزه » ، ويفقد هذا التراث عينا عليها شالا ومهمدا ، بدلا من ان يكون باعثا ومحيبا كما هي الحال في ادوار الانبيسات والنمو . يصبح الماضي محط النظر ومرتكز الطموح فينفض عن واقع الحاضر ، بدلا من ان يكون خاضعا للتقيد ومنطلقا لانجازات جديدة « تتجاوزه » وتسمو عليه ، او كما يقول الدكتور زكريا (ص ١١ ، س ٨ من ادنى) : « يصبح الماضي هو القادر على تخليصنا من مشاكل الحاضر ، ويظل الفكر « متخلفا » ، راجعا الى الوراء ونافرا الى الخلف وتصبح المواجهة المباشرة للحاضر امرا مستحيل التحقيق في ظل هذه النظرة التراجعية اللاتاريخية » . اني ازمه ان هذه النظرة التراجعية هي سمة لادوار التخلف والتضعف في الحضارات والثقافات بوجه عام لا سمة تنفرد بها الثقافة العربية .

٦ - وثمة ملاحظة اخرى على ظاهرة الانقطاع هذه . ما هو الذي انقطع بالفعل ؟ ان جوابنا على هذا يتوقف على مفهومنا للتراث . ويغيب الي ان الدكتور زكريا يقصر هذا المفهوم على « الفترة الالامة » التي « وصل فيها (العلم والفكر العربي) الى اقصى درجات التقدم المتاحة في القرون الوسطى » (ص ١٣ ، س ٩ و ١٠) والتي تلتها فترة انتشار الفلام وتوقف التقدم الممتدة الى عصر قريب « قد يكون هو القرن العشرون او التاسع عشر على احسن الفروض » (ص ١٣ ، س ١٥ - ١٦) . ومن هنا قوله « ان ماضينا وحاضرنا لا يكونان خطا متصلا وان هذا الانقطاع هو الذي ادى الى تشويبه نظرنا الى الماضي والحاضر على السواء » (ص ١٣ ، س ٧ - ٨) . والواقع هو ان تاريخنا ، كتواريخ جميع الشعوب ، يكون خطا متصلا ، وان الذي انقطع ليس التاريخ أو التراث بكامله ، وانما الذي انقطع هو الابداع الحضاري ، والذي توقف هو التقدم الحضاري . ولذلك يجب الا نقصر « التراث » على الانتاج الايجابي والاشعاع المضيء في فترة معينة فحسب ، بل ان نمده على جميع ما ورثنا من الماضي من عهود الالامة والمظلمة معا ، عهود الابداع والتقدم وعهود الركود والتأخر . والواقع هو ان الفرد العربي المسادي اليوم يتحسس باحاسيس وينطلق من مفاهيم هي مزيج مما تلقاه من تراثه كله ، وخصوصا من تراثه القريب الذي ساد فيه التخلف وتغلب الجهل على العلم و « القبيات والافكار الاسطورية » على الجهد العقلي . ولذا ، فلا بد من فريدة هذا التراث ، ومن فصل ايجابياته عن سلبياته ، لانه لا يزال فاعلا فينا ، شئنا ام ابينا ، فعلينا ان نتحرى آثاره المختلفة في حياتنا لنعزز ما يصلح لحاضرنا ومستقبلنا ولنتخلص مما لا يصلح بل يعيق ويسبب .

٧ - اني اوافق الدكتور زكريا في « ان الاحياء الحقيقي للتراث انما يكون عن طريق تجاوزه واتخاذه سلما لمزيد من الصعود . انما احياء الاسترجاع فهو في حقيقته قضاء على التراث » (ص ١٦ ،

س ١١ - ١٢) . ولكن كيف يمكننا ان نتجاوز هذا التراث ونتخذه سلما لزيد من الصعود اذا لم نعرفه على حقيقته ؟ واذا لم ننتقده ونغربله ؟ وليس يجدينا كما يقول : « الامتناع من توجيه الدم أو المدح الى التراث ، الا اذا كان ذلك داخل الاطر التاريخي الخاص به » (ص ٥ ، س ٤ من أدنى) . طبعاً لا يحق لنا ان نطبق على الماضي مقاييس الحاضر ، ولكن يمكننا على الأقل ان نتساءل : لماذا استطاع التراث ان يزهو ضمن الاطر التاريخي الخاص به ، ولماذا عجز عن ان « يتجاوز » هذا الاطر الى اطار آخر ؟ ومن مجابتهنا لهذا السؤال نتضح لنا امكانيات تجاوزه في الوقت الحاضر ، وهكذا يكون الاحياء الحقيقي نابعا من نقد التراث . اما الاسترجاع فحسب ، الذي يضيء بالنقد ويبقي اعاداة الماضي كما هو ، فاني ارى مع الدكتور زكريا انه في حقيقته قضاء على التراث ، بل اذهب الى القول - ولا أشك في ان الدكتور زكريا يوافقني عليه - انه قضاء لا على التراث فحسب ، بل على الحاضر والمستقبل ايضا .

٨ - ولكن اذا كان الاسترجاع المطابق امر غير مرغوب فيه ، بل ليس ممكنا حتى لو اردناه ، فان هذا يجب ألا يجرنا الى الطمس الآخر فنقول : « ان من الممكن ان تقوم نهضة علمية وفكرية رفيعة المستوى في مراحلها الاولى ، على أساس الرفض الحاسم للتراث ، وذلك حين يكون هناك انقطاع في التراث يمنع من استمراره في خط متصل حتى الحاضر . وعندئذ لا بد ان ترفع النهضة شعار « البدء من جديد » كعلامة على تحدي التراث » (ص ١٩ ، س ٣ - ٦) . قد ترفع النهضة هذا الشعار ولكن هل يمنحها ان تطيقه فعلا ؟ انسي أفر انه يجب ان نبدأ من واقع الحاضر ، بل من تطلعات المستقبل . ولكن هل يمكننا ان نقطع صلتنا بالماضي قطعاً باتا حتى في المراحل الاولى من نهضتنا ؟ ألا يكون هذا القطع موقفاً « لا تاريخياً » مقابلاً للموقف « اللاتاريخي » الآخر الذي تحدث عنه الدكتور زكريا مطولاً وحذرنا من مضائته . لا ضير علينا اذا كنا نعني ب « تحدي التراث » مجابته ونقده والتصميم على تجاوزه ، اما اذا كنا نعني « الرفض الحاسم للتراث » ، فاني أزعم ان هذا الرفض الحاسم هو ، كالأسترجاع المطلق ، أمر غير مرغوب فيه ، وغير ممكن حتى لو اردناه ، لان الحاضر هو وليد الماضي وتناج التراث . نستطيع - بل يجب علينا - ان نتجاوز الماضي على ان يتضمن هذا التجاوز كل ما في الماضي من خير وابداع . ولست أظن انه يكفي في عملية التجاوز هذه ان نتوجه الى الحضارة الأوروبية وحدها على أساس « ان الحضارة الأوروبية هي التي حفظت التراث العربي وصانته بالطريقة الصحيحة ، اعني انها صانته عن طريق تجاوزه وتصحيحه وتنقيده ، وضمنت له من خلال موه حياة مستمرة » (ص ١٧ ، س ٢ - ٤) . قد تكون الحضارة الأوروبية قد حفظت التراث العربي العلمي والفلسفي وتجاوزه ، ولكن ثمة جوانب اخرى من التراث العربي ، وأهمها التراث الادبي ، لم تعره الحضارة الأوروبية ولم تتجاوزه بالتصحيح والتنقيح ولم تضمن له من خلال موهه فيها حياة مستمرة ، كما ان هناك تراثاً عربياً فنياً ، في العمارة والصنع والزخرفة والموسيقى ، قد عرفته الحضارة الأوروبية ، ولكن ظلت له شخصيته الخاصة ولم يذب او يتجاوز في تلك الحضارة . ان استكشاف العناصر الابداعية في هذه الجوانب من تراثنا ، واستخلاص حوافر الابداع في ما أخذه القرب وتمثله ثم تجاوزه من علم وفلسفة ، جديران بأن يعززا نهضتنا ، وان يحفظا بالوقت ذاته أصالتنا . وبكلمة اخرى : ان تصميمنا على التجرد من كل ما في تراثنا من راسب التأخر والتخلف يجب ان يتمشى مع حرصنا على استعادة كل ما احتواه من حوافر الانطلاق والتقدم .

٩ - ولنطبق هذا على « درس النهضة الأوروبية » الذي حله الدكتور زكريا (ص ١٧ - ١٩) . ومما ذكره في تحليله هذا : « (اول

ما نستخلصه من هذه الدراسة هو ان الأوروبيين لم يخجلوا من اعلان رفضهم القاطع لتراث كامل ينتمي الى صميم ثقافتهم » (ص ١٧ ، س ٥ من أدنى) . ويفهم من الجملة التالية ان الدكتور زكريا يعني بهذا التراث الكامل « تراث الفكر الارسطي » (س ٣ من أدنى) . ويرى بعض الباحثين ان الأوروبيين لم يرفضوا التراث الارسطي بكامله . بل لهم رفضوا المنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الطبيعية ، ولكنهم ظلوا يتأثرون بكتب أرسطو الاخلاقية والسياسية . ثم لما جاءهم كتب افلاطون وأرسطو بأصولها اليونانية من اهل القسطنطينية اللاتين الى اوربا اقبلوا على دراستها بنهم لانهم ، بدافع اعجابهم بالاصول اليونانية ، كانوا حريصين على الاطلاع عليها مباشرة لا عن طريق ترجماتها العربية او العبرية فحسب . ولكن لو فرضنا انهم ثاروا على الفكر الارسطي ورفضوه فان هذا الفكر ، على أهميته وسيادته طيلة القرون الوسطى ، لم يكن يمثل التراث الفلسفي اليوناني بكامله . اذ يجب ان ننسى ان الفكر اليوناني من ايام طاليس بدأ يتجه نحو الطبيعة ويتساءل عن ظواهرها وعللها ويتحررها بالاساليب العقلية ، ثم جاء سقراط وافلاطون وأرسطو فأضافوا الى الاهتمام بالطبيعة الاهتمام بالانسان بالاساليب العقلية ايضا . وهكذا كان للعقلانية الأوروبية في عصر النهضة وما بعدها جذورها العميقة في الفكر اليوناني ، وكان رجال النهضة ورجال عصر التنوير واعين لهذه الجذور ، ولا اظننا نستطيع القول انهم « في مجال التفكير العلمي والفلسفي رفضوه (التراث اليوناني والروماني) رفضاً قاطعاً » (ص ١٧ ، س ١٢) . ومع ان الدكتور زكريا يؤكد ان الأوروبيين « عادوا الى التراث اليوناني والروماني في مجال الفنون والآداب » (ص ١٧ ، س ١١ - ١٢) ، فان هذا التأكيد يكاد يأتي عرضاً ، لان النهضة الأوروبية تمثل عنده في جوهرها موقف الرفض القاطع للمقدم « ولم يكن في موقف الرفض القاطع هذا ما يعيبهم ، بل قد اصبح هذا الموقف هو اساس مجدهم وهو الذي وضعهم على قمة الفكر والعلم في القرون الوسطى » (ص ١٨ ، س ٦ - ٨) . وفي رأينا ان حركة النهضة لم تكن تمثل رفضاً قاطعاً . انها كانت ، من جهة ، رفضاً للعقلية اللاهوتية الكلامية الوسيطة التي جسدت منطق ارسطو وفلسفته لغاياتها ، ولكنها كانت ايضا ، من جهة اخرى ، بمثابة التراث اليوناني في عقلانيته وللتراث اليوناني اللاتيني في « انسانيتهما » ، وفي روائع أصولها الادبية والفنية . ان « النهضة » كانت حركة بنزعات التجرد والتواصل معا . ومن هنا كانت عظمتها وكان اثرها البارز في الحضارة الأوروبية .

١٠ - وبعد ، فقد اطلنا الحديث عن التراث وكنا نخرج عن الموضوع الاصلي وهو : « التخلف الفكري وأبعاده الحضارية » . فلا بد ان من ان نتحرى العوامل المختلفة لهذا التخلف ، وان نتساءل عن أبعاده الحضارية . ولست أدري بالضبط ما هو المقصود بهذه « الأبعاد » . ان هذا التعبير يحتاج الى مزيد من التدقيق والتوضيح . فهل المقصود هو اثار تخلفنا الفكري في اوضاعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي سلوكنا الخاص والعام ، ام المقصود هو دلالة تخلفنا الفكري على وضعنا الحضاري العام . ومهما يكن من امر ، فان هذا الجانب من الموضوع يحتاج الى دراسة خاصة والى معالجة يصعب ان يستوعبها نطاق البحث الذي نحن بصده .

ويسرني في ختام هذا « التعليق » ان أعود فأشير بما في هذا البحث من موضوعية وجرأة وتجديدية ، ومن تأكيد شديد على « التاريخية » الصحيحة ، وعلى ضرورة تجاوز الماضي ، وعلى اولوية الحاضر ، ومن تسلسل منطقي ووضوح فكري . كما أعود الى القول ان ملاحظاتي ليست سوى تنمة لهذا البحث ارجو ان يجد فيها الدكتور زكريا والمشترون في الندوة ما هو حري بالاعتبار والتقدير والنقاش .